تاريخ تدوين السنة
وشبهات المستشرقين

د. حاكم عبيسان المطيري

كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - قسم التفسير والحديث

٢٠٠٢

فهرسة مكتبة الكويت الوطنية

المطيري، حاكم عبيسان

تاريخ تدوين السنة وشبهات المستشرقين/ حاكم عبيسان المطيري . ط ١

الكويت : جامعة الكويت ، ٢٠٠٢م .

ص ٢١٢ ؛ ٢٤ × ١٧ سم

بيليوجرافيا : ص ٢٠١ - ٢٠٩

ردمك ١-٠٧١-١-٩٩٩٠٦

١ - الحديث - جمع وتدوين . ٢ - السيرة النبوية . ٣ - الإستشراق والمستشرقون .

ديوي ٩, ٢٣٠

ردمك ١-٠٧١-١-٩٩٩٠٦

ISBN 99906-1-071-1

رقم الإيداع : ٢٠٠٢/٠٠٠٢٣

Depository Number: 2002/00023

جميع الحقوق محفوظة - جامعة الكويت - لجنة التأليف والتعريب والنشر - الشويخ

ص.ب : ٥٩٦٩ الصفاة - الرمز البريدي 13060 الكويت - تلفون وفاكس : ٤٨٤٣١٨٥ (٠٠٩٦٥)

All rights reserved to Kuwait University - the Authorship Translation and publication Committee - Al-Shuwaikh - P.O.Box: 5969 Safat, Code No. 13060 Kuwait

Tel. & Fax : (00965) 4843185 - 4842243 - Ext.: 8101 - 4566

البريد الالكتروني : Email:ATAPc @ kucol.kuniv.edu.kw

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة :

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين أما بعد :

فهذه الدراسة هي في الأصل جزء من رسالة الباحث وأطروحته لنيل درجة الدكتوراه المجازة من قبل (مركز الدراسات الإسلامية) بجامعة برمنغهام _انجلترا بعنوان :

(تحقيق كتاب : «إحكام الذريعة إلى أحكام الشريعة» للحافظ السرمري الحنبلي ، مع دراسة لمراحل تدوين السنة ومناقشة آراء المستشرقين حولها)

وقد رأيت من الأهمية الإسهام بإثراء المكتبة العربية ، التي ما تزال في حاجة كبيرة إلى ترجمة ما يقدم في الجامعات الغربية من دراسات أكاديمية عن الإسلام ، وتاريخه ، ومصادره التشريعية ، فاخترت هذين الفصلين وهما عن (تاريخ تدوين السنة) و(شبهات المستشرقين حولها) من الرسالة لطباعتهما باللغة العربية بالإضافة إلى جزء من الفصل الثالث عن (كتب أحاديث الأحكام) ، وربما وجد القارئ شيئاً من الغرابة في الطرح أو الأسلوب وما ذاك إلا لأنها كتبت في الأصل لمخاطبة العقل الغربي ومناقشته ، ذلك العقل الذي يختلف في طريقة تفكيره ، وأسلوبه ، وثقافته ، عن العقل العربي .

فعسى أن تسهم هذه الدراسة في الكشف عن بعض الجوانب المهمة في هذا الموضوع ، الذي ما يزال في حاجة إلى المزيد من الدراسات الأكاديمية ، التي تعالج مشكلاته ، وتجيب عن أسئلته التي ما زالت تثار حول تدوين السنة ، وتتردد أصداؤها في جنبات ثقافتنا العربية المعاصرة ، والله ولي التوفيق .

الفصل الأول
السنة ومراحل تدوينها

السنة ومراحل تدوينها

مقدمة :

السنة النبوية هي المصدر الثاني من مصادر التشريع في الإسلام ، وهي تشمل أقوال الرسول ﷺ وأفعاله وتقريراته[1] ، وقد فرض القرآن على المؤمنين اتباع الرسول ﷺ وطاعته في آيات كثيرة ، كما في قوله تعالى : ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ** ﴾[2] و﴿ **مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ** ﴾[3] .

والسُّنة هي بيان وشرح للقرآن كما في قوله تعالى : ﴿ **وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ** ﴾[4] فهي بالنسبة للقرآن كالمذكّرة التفسيرية للدستور في لغة هذا العصر وكالقوانين التي تعبِّر عن المبادئ العامة التي يتضمنها الدستور في الأنظمة المعاصرة .

وهذا هو السبب الرئيسي الذي جعل علماء الصحابة ومن بعدهم يعتنون بها عناية كبيرة حفظاً وكتابةً ، وفتوىً وقضاءً ، وعلماً وعملاً ، وفهماً ومذاكرةً ، حتى ظهر (علم الحديث) وازدهرت فنونه ، وبلغت الكتب التي تدور في فلك (السُّنة) و(الحديث النبوي) ، آلاف المصنّفات ، شارك فيها آلاف العلماء منذ عصر الصحابة

---

(١) انظر الفصول في الأصول للجصّاص (٣/ ٢٣٥) ، والإحكام في أصول الأحكام ، ابن حزم (٢/ ٦) ، طبعة ثانية سنة ١٤٠٨هـ ، تحقيق : أحمد شاكر ، كراتشي ، وأيضاً (١/ ٩٦) و (١/ ١٠٤) و(٤/ ١٢٨) . ومجموع فتاوي ابن تيمية (١٨/ ٧) وإرشاد الفحول للشوكاني (٣٣) .

(٢) سورة آل عمران _آية (٣١) .

(٣) سورة النساء _آية (٨٠) .

(٤) سورة النحل _آية (٤٤) ، وانظر الرسالة للإمام الشافعي (٣٣) .

إلى العصر الحاضر[1] .

وقد شاع رأيٌ في الأوساط العلمية بين بعض المفكرين والباحثين في هذا العصر من المهتمين بالفقه الإسلامي ومصادره التشريعية (القرآن والسنة) يرجح بل يؤكد أن (السنة) ظلت تُنقل بالرواية الشفهية إلى القرن الثاني الهجري ، حيث بدأ تدوينها بعد ذلك مما يستدعي الشك في صحتها !

ولا شك أن هذا الرأي يحتاج إلى مزيد من البحث والاستقصاء للكشف عن مدى صحته ومطابقته للواقع .

وينبغي علينا أن نذكر قبل البدء في بحث هذه القضية أموراً مهمة سوف تسهم في توضيح كثيرٍ من جوانب هذا الموضوع :

أولاً : هناك فرق كبير بين كلمة (تدوين) و (تأليف) و (تصنيف) من جهة ، وكلمة (كتابة) من جهة أخرى في اللغة العربية .

فالكلمات الثلاث الأولى تفيد _عند الإطلاق _أن هناك كتاباً تم تأليفه بين دفتين بحيث يشتمل على مجموعة من الأوراق تشكِّل بمجموعها كتاباً واحداً .

فالديّوان : هو مجتمع الصحف[2] ، والدَّفتر الذي يُكتب فيه[3] .

والتدوين : هو عمل وصناعة الديوان .

والتأليف : هو جمع مادة مفرّقةٍ وضمها إلى بعض بحيث تصبح كتاباً

---

(١) انظر : الرسالة المستطرفة للكتاني ، فقد ذكر كثيراً من كتب السنة .

(٢) لسان العرب مادة (دون) .

(٣) النهاية في غريب الحديث (٢/ ١٥٠) .

واحداً[1] هو المؤلّف .

والتصنّيف : هو التمييز[2] والترتيب بحيث يكون الكتاب (المصنّف) مقسماً على أبواب أو فصول .

وأما الكتابة : فهي _عند الإطلاق _ لا تفيد إلاّ مجرد الخطّ أو الرقم على ورقة أو لوح أو جدار . جاء في اللسان : (كتب الشئ . . . خطّه)[3] .

ويطلق على الورقة أو الصحيفة أو الرسالة المكتوبة : كتابٌ[4] .

فينبغي فهم هذه الألفاظ فهماً دقيقاً ليسهل معرفة مراد كثير من العلماء القدماء الذين تكلموا في هذا الموضوع . بل ينبغي فهم مصطلحات أهل كل فنٍّ ومراعاة تطورها واختلاف دلالاتها بين عصر وآخر ، لأنه المدخل الصحيح لفهم أي قضية فهماً صحيحاً .

إذن لا بد من مراعاة مدلول هذه الألفاظ عند دراسة هذه القضية ، فقول الترمذي _مثلاً_ : (وجدنا غير واحد من الأئمة تكلّفوا من التصنيف ما لم يسبقوا إليه . . .)[5] ، أو قول ابن حجر : (ثم حدث في أواخر عصر التابعين تدوين الآثار وتبويب الأخبار . . .)[6] .

---

(١) لسان العرب مادة (ألف) . وانظر : تعريفات الجرجاني علي بن محمد الشريف الجرجاني (٥٠) حرف (التاء) .

(٢) لسان العرب مادة (صنف) .

(٣) لسان العرب مادة (كتب) .

(٤) لسان العرب مادة (كتب) .

(٥) سنن الترمذي (٥/ ٦٩٤) كتاب (العلل الصغير) المطبوع في آخر السنن .

(٦) هدي الساري مقدمة فتح الباري (٦) .

أو قولهم : (أوّل من دوّن العلم وكتبه ابن شهاب) [1] . ونحو هذه العبارات إنما تفهم على ضوء ما سبق بيانه من الفرق بين مدلول هذه العبارات عند الاستخدام . فلا تعارض بين قولهم بدأ (التصنيف) و (التدوين) في أواخر عصر التابعين ، وبين قولهم إن بعض الصحابة وأتباعهم كانوا يكتبون أو عندهم صحف وكتب [2] . كما سيأتي في البحث .

ثانياً : كما أنه من الضروري عند دراسة هذا الموضوع مراعاة الظروف الخارجية المتصلة والمحيطة به ، وهي ظروف المجتمع العربي عموماً ، والمجتمع الإسلامي في عصر الرسول ﷺ وعصر الصحابة على وجه الخصوص ، وتتمثل هذه الظروف فيما يلي :

١ - أن العرب قبل الإسلام أُمَّةٌ أمّيةٌ ، لا تعرف العلوم التي تشتغل بها الأمم الأخرى ، كعلم المنطق ، والفلسفة ، والرياضيات ، والطب . . . إلخ ، وإنما الفنّ الوحيد الذي برعوا فيه وبلغوا فيه الذروة هو فنّ (البيان) ، وعلم (اللسان) ، شعراً ، ونثراً ، حتى بلغ بهم الشأن أن يعقدوا مؤتمرات أدبية سنوية في أسواقهم المشهورة _كسوق عكاظ وذي المجاز _ ، يتبارى فيها الشعراء والخطباء من كل القبائل ، أيُّهم أحسن شعراً ، وأبلغ خطبةً [3] ، فتطورت الفنون الأدبية

---

(١) سير أعلام النبلاء (٥/ ٣٣٤) .

(٢) ولهذا وقع د/ محمد مصطفى الأعظمي في خطأ حيث لم يفهم عبارة الحافظ ابن حجر فأخذ يناقشها ويحاول تفسيرها ، ولم يلاحظ الفرق بين معنى (دوَّن) ومعنى (كتب) . انظر : دراسات في الحديث النبوي (١/ ٧٢ -٧٣) .

(٣) انظر : تاريخ ابن خلدون (١/ ٤٠٤ -٤٠٥) في جهل العرب بالصناعات و (١/ ٤٦٩) في نبوغهم في الشعر وفنونه ، وحضارة العرب - غوستاف لوبون (٤٤٦) (فصل (الأدب العربي) .

(اللسانية) تطوراً عظيماً ، وصارت الفصاحة ، والبلاغة ، والإيجاز ، وحسن التصوير اللفظي ، ودقته ، الفنَّ الوحيد الذي فُتن فيه العرب غاية الافتتان ، حتى قرضوا ونظموا من الشعر ما لم تقرضه أمم الأرض قاطبة [1] .

ولهذا جاء (القرآن) متحدياً إيَّاهم في هذا (الفنّ) الذي برعوا فيه ألا وهو (البيان) الذي بهرهم به (أسلوب القرآن) الذي تحداهم أن يأتوا بسورة مثله ، فلما عجزوا علموا أنه حقٌّ وصدقٌ وأنه فوق طاقة أدبائهم وشعرائهم [2] .

وبسبب عنايتهم الفائقة (بالبيان) كانوا من أقدر الأمم على التعبير عما في نفوسهم بأوجز عبارة ، وأوضح لفظ ، وأقدرها على فهم الكلام ومقاصده .

وبسبب هذه الأميّة وخلو أذهانهم من العلوم والمعارف التي كانت عند الأمم الأخرى كانوا مهيئين لتلقي (القرآن) و (السنة) والتشريعات التي جاء بها الرسول ﷺ والاشتغال بها والعناية بحفظها وفهمها ، إذ ليس هناك علوم طبيعية أو عقلية تأخذ من جهدهم ووقتهم تزاحم القرآن والسنّة ، ولهذا كان كل نشاطهم العلمي الوحيد في حفظهما وفهم معانيهما .

٢ - ولأن العرب أمة أمية يقلّ فيها الكتّاب والقرَّاء فقد صار الحفظ والاعتماد على الذاكرة الوسيلة الرئيسة في حفظ تراثهم التاريخي والأدبي ، فصاروا يحفظون أنسابهم وتاريخهم وأشعارهم وحِكَمَهم عن ظهر قلب ، ويتبارون في هذه المهارة ، أيُّهم أكثر حفظاً لهذا التراث وأجود ضبطاً ، وكان الشاعر العربي إذا نظم

---

(١) المصدر السابق (٤٤٨) .

(٢) انظر : البحر المحيط للزركشي (١/ ٤٤٤-٤٤٦) .

قصيدة أخذ يرددها في المحافل ، ثم لا يلبث قليلاً حتى يحفظها عنه العشرات ويرددونها حتى يحفظها عنهم المئات ، وهكذا حتى تنتشر بين قبائل الجزيرة العربية وتصبح محفوظة في صدور مئات الرجال لا يكاد يقع بينهم اختلاف كبير في روايتها ، وقد استمرت هذه الطريقة إلى عصرنا الحاضر بين قبائل الجزيرة العربية .

٣ - ولم تكن الرواية طريقة مبتكرة بعد عصر الصحابة ، بل هي أشهر وسيلة تعليمية وإعلامية عند العرب في الجاهلية[١] ، فكان لكل شاعر عربي راويةٌ يلازمه ، ويحفظ كل أشعاره ، ويتعلم منه ، فإذا نظم الشاعر قصيدة - وقد تزيد أحياناً على مائة بيت - أخذ يرددها على مسامع راويته[٢] وتلميذه حتى يتأكد منه أنه حفظها بإتقان ليرويها عنه في المحافل العربية .

٤ - كما أن من أخلاق العرب قبل الإسلام الصدق في الحديث ، والأمانة ، والوفاء بالعهد ، وكانوا يعظمّون هذه الصفات الأخلاقية تعظيماً شديداً ، ولهذا لم يستطع أبو سفيان بن حرب أن يكذب على الرسول ﷺ عند (هرقل) - عندما ذهب في تجارته للشام سنة ٦ هـ - قبل أن يسلم - وسأله (هرقل) عن أخبار الرسول ﷺ ، وإلى ما يدعو الناس ، فأجابه أبو سفيان بالصدق ولم يستطع أن

---

(١) انظر : مصادر الشعر الجاهلي (٢٥٥) ناصر الدين الأسد ، طبعة أولى _سنة ١٩٧٠م ، بيروت ، والمفصل في تاريخ العرب د/ جواد علي (٩/ ٢٦٥) ، طبعة أولى _سنة ١٩٧٢م ، دار العلم _ لبنان . وتاريخ التراث العرب ، فؤاد سزكين ، ترجمة محمود فهمي ، طبعة أولى _سنة ١٩٨٣م ، نشر جامعة محمد بن سعود _الرياض ، المجلد الأول (١٢٥) .

(٢) وهذا كله لا ينفي معرفة العرب قبل الإسلام بالكتابة وتدوينهم بعض تراثهم ، انظر : دراسات في الحديث النبوي (١/ ٤٣) ، وتاريخ ابن خلدون (١/ ٤١٨) . ومصادر الشعر الجاهلي (٦٦) .

يكذب خوف العار والفضيحة حيث قال : (والله لولا الحياء من أن يَأْثروا عليَّ كذباً لكذبت عليه) [1] . فمع شدَّة عداوة أبي سفيان للرسول ﷺ إلاّ أنه لم يكذب عليه عند ملك الروم حياءً وخوفاً من العرب .

٥ - أن الرسول محمداً ﷺ كان من قريش ، وهي أفصح القبائل العربية[2] . وكان الرسول ﷺ هو أفصحها لساناً ، وأوضحها بياناً[3] ، وهذا ما ساعد على سهولة حفظ كلامه ، لوضوحه وجماله ، والعرب يسحرهم الأسلوب الجميل .

٦ - وكان الرسول ﷺ إذا تكلَّم أوجز الكلام ، وأعاد الكلمة ثلاث مرات ، حتى يحفظها أصحابه عنه ، قال خادمه أنس بن مالك عنه : (كان إذا تكلَّم بكلمة أعادها ثلاثاً حتى تفهم عنه)[4] .

٧ - كما كان الصحابة يتدارسون ويتذاكرون كلّ ما يسمعونه من الرسول ﷺ في مساجدهم ، ومجالسهم ، وبيوتهم ، رجالاً ونساءً ؛ لأنهم يرونه واجباً دينياً ، يفرضه عليهم القرآن ، كما في قوله تعالى : ﴿ **أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ** ﴾[5] وقوله : ﴿ **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ** ﴾[6] . حتى إنهم كانوا يحفِّظون أبناءهم الحديث كما يحفِّظونهم القرآن كما في صحيح البخاري :

---

(١) انظر : صحيح البخاري ح رقم (٧) .

(٢) انظر : الشفا للقاضي عياض اليحصبي (١/ ٧٠) ، طبعة دار الكتب العلمية - لبنان ، وانظر : تاريخ ابن خلدون (١/ ٤٣٨) و (١/ ٥٤٦) ، وحضارة العرب (٤٣٩) فصل (اللغة العربية) .

(٣) انظر : تاريخ الإسلام للذهبي ، قسم السيرة النبوية (٤٦٣) .

(٤) رواه البخاري في صحيحه حديث رقم (٩٥) و (٦٢٤٤) ، وانظر : إحكام الأحكام (١/ ١٣٩) ، والأنوار الكاشفة (٦٤) .

(٥) سورة النساء - آية (٥٩) .

(٦) سورة الأحزاب - آية (٢١) ، وانظر : مجموع فتاوي ابن تيمية (١٩/ ٨٣-٨٦) .

(كان سعد - ابن أبي وقاص - يعلِّم هذا الحديث بنيه كما يعلِّم المُعَلِّمُ الغلمان)[1] .

وكانوا إذا غاب أحدهم عن مجلس الرسول ﷺ سأل من حضره من الصحابة الآخرين ماذا قال الرسول ﷺ - كما في قصة عمر مع جاره في تناوبهما على حضور مجلس النبي ﷺ -[2] وبهذه المذاكرة والمدارسة اليومية بين الصحابة رسخت في أذهانهم وحفظوا عن ظهر قلب كثيراً من أقوال وأفعال الرسول ﷺ ؛ لأنها شرح وبيان لمعاني القرآن ، خاصة أن النبي ﷺ قد يكرر الحديث الواحد في أماكن مختلفة وأوقات مختلفة بحسب الحاجة [3] .

٨ - وقد عاش الرسول ﷺ بعد نزول القرآن عليه ثلاثة وعشرين عاماً ، منها ثلاثة عشر بمكة ، وعشرة أعوام بالمدينة ، وهي مدَّة طويلة حفظ فيها أصحابه الملازمون له كلّ ما علّمهم إيَّاه ، أي : أطول من مدَّة الدراسة التي يحتاجها الطالب منذ طفولته حتى يحصل على شهادة الدكتوراه في أي تخصص في هذا العصر .

٩ - وقد كان الرسول ﷺ يحفِّظ أصحابه كثيراً من السنن القولية التي يحتاجونها تحفيظاً حرفياً _كما فعل مع البراء بن عازب عندما علَّمه حديث النوم : قال البراء : فرددتها على النبي ﷺ فلما بلغت «اللهم آمنت بكتابك الذي أنزلت ورسولك» قال : «لا ، ونبيك الذي أرسلت»[4] .

---

(١) ح رقم (٢٨٢٢) وفتح الباري (٦/ ٣٥) .

(٢) صحيح البخاري حديث رقم (٨٩) ، وانظر فتح الباري (١/ ١٨٥) .

(٣) وانظر مجموع فتاوي ابن تيمية (١٨/ ٢٨) و (١٨/ ٢٣) .

(٤) صحيح البخاري حديث رقم (٢٤٧) ، وانظر الإحكام (٢/ ٨٦) .

فقد رفض الرسول أن يبدل البراء كلمة (نبي) بـ (رسول) مع أن معناهما واحد تقريباً .

وقال جابر كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة كما يعلمنا السورة من القرآن[1] .

وقال ابن عباس كان رسول الله ﷺ يعلمنا التشهد كما يعلمنا السورة من القرآن[2] .

١٠ - وكذلك كان الرسول ﷺ يعلّم الوفود التي تأتيه من قبائل العرب ، كما فعل مع وفد قبيلة عبد القيس ، حيث علّمهم شرائع الإسلام ، ثم قال لهم : (احفظوه وأخبروه من وراءكم)[3] وكذا صنع مع مالك بن الحويرث[4] .

١١ - كما أن الصحابة إذا اختلفوا في مسألة رجعوا إلى الرسول ﷺ حتى يعلمهم الصواب[5] ، وكذا إذا أشكل عليهم شيء من القرآن أو من كلام الرسول ﷺ يراجعونه حتى يوضحه لهم كما كانت تفعل عائشة : (كانت لا تسمع شيئاً لا تعرفه إلاّ راجعت فيه حتى تعرفه)[6] .

١٢ - أن الرسول ﷺ أعظم شخصيّة خرجت في جزيرة العرب ، ولم يمت حتى

---

(١) صحيح البخاري حديث رقم (١٠٩٦) .

(٢) التمييز لمسلم حديث رقم (١٨٩) ، تحقيق : د/ محمد الأعظمي ، طبعة ثالثة سنة ١٩٩٠م ، الكوثر - الرياض .

(٣) صحيح البخاري حديث رقم (٨٧) ، وأحمد (٤/ ٢٠٦) .

(٤) صحيح البخاري حديث رقم (٦٨٥) .

(٥) صحيح البخاري حديث رقم (٨٨) ، وانظر : فتح الباري (١/ ١٨٤) .

(٦) صحيح البخاري حديث رقم (١٠٣) ، وانظر : فتح الباري (١/ ١٩٦) .

أقام دولةً شملت الجزيرة العربية كلها ، وبلغ أتباعه وأصحابه عشرات الآلاف ، وحج معه في آخر حياته مائة ألف رجل من جميع قبائل العرب ، كما أن الملازمين له بالمدينة من خاصة أصحابه نحو أربعة آلاف رجل .

قال الحاكم : (روى عنه ﷺ من الصحابة أربعة آلاف رجل وامرأة ، صحبوه نيفاً وعشرين سنة ، بمكة قبل الهجرة ، ثم بالمدينة بعد الهجرة ، حفظوا عنه أقواله ، وأفعاله ، ونومه ، ويقظته ، وحركاته ، وسكونه . . .) [1] .

ولا شك أن هذه الأوضاع كان لها أكبر الأثر في استقرار سننه وتشريعاته ، فلم يكن شخصية مغمورة أو مجهولة يسهل الافتراء عليه ، ولهذا عندما خطب في المسلمين في حجة الوداع وعلّمهم أصول دينهم وشريعتهم قال لهم : (ألا ليبلِّغ الشاهد منكم الغائب) [2] .

١٤ - وقد كان أصحاب الرسول ﷺ يحبونه حبّاً عظيماً ، يظهر هذا في تركهم أهلهم ، وأبناءهم ، وقبائلهم ، وأموالهم ، وهجرتهم معه إلى المدينة ، وقتالهم معه حتى حاربوا آباءهم ، وإخوانهم ، وقبائلهم ، وماتوا دفاعاً عن هذا الرسول ﷺ ، ودفاعاً عن دينه ، وعاشوا معه في المدينة فقراء ، بعد أن كانوا في مكة أثرياء ، مما يدل على مدى حبهم للرسول ﷺ ، حتى قال عروة بن مسعود الثقفي - عندما أرسلته قريش ليناقش الرسول ﷺ في (صلح الحديبية) - : (والله لقد

---

(١) المدخل في علم الحديث ، الحاكم النيسابوري ، (١١) ، طبعة ١٩٥٣م ، لوزاك ، تحقيق : روبسون ، والإحكام (٤/ ١٧٦) ، وانظر : فتح الباري (٨/ ١١٧ - ١١٨) ح رقم (٤٤١٨) في بيان عدد الصحابة في غزوة تبوك .

(٢) صحيح البخاري حديث رقم (١٠٥) .

وفدت على الملوك ، ووفدت على قيصر ، وكسرى ، والنجاشي ، والله ما رأيت مليكاً قط يعظّمه أصحابه كما يعظّم أصحاب محمد محمداً)[1] .

وقد كان الرسول ﷺ يحذّر المسلمين من الافتراء عليه أشدّ تحذير حتى قال : (من كذب علي فليتبوأ مقعده من النار) [2] .

ولهذا امتنع كثير من الصحابة عن الرواية والتحديث عن الرسول ﷺ لخوفهم من الغلط والخطأ غير المقصود في الرواية ، وتركوا هذه المهمة للحفّاظ الآخرين[3] .

١٤ - أن الصحابة كانوا يصلُّون مع النبي ﷺ خمس مرات في اليوم والليلة ، ولا يغيب منهم أحد إلاّ بعذر ، أي : أنهم يلتقون بالرسول ﷺ مائة وخمسين مرّة في الشهر الواحد ، يعلّمهم أمور دينهم ، ويقرأ عليهم القرآن ، ويفسِّر لهم ما يشكل عليهم من آياته . كما كان النبي ﷺ يخطب فيهم كل أسبوع يوم الجمعة خطبتين ، أي : أنه يخطب فيهم خطبة عامة مائة مرة كل سنة ، هذا سوى الخطب التي تقتضيها بعض المواقف والمناسبات ، ولم يكن للصحابة من شغل سوى سماع ما يقوله الرسول ﷺ ، وحفظه ، وفهمه ، وتطبيقه ، وكانوا لا يتجاوزون عشر آيات من القرآن حتى يفقهوا معانيها ، ويعملوا بها [4] .

١٥ - وقد كان مجموعة من الصحابة متخصصين ببعض علوم الشريعة ، وكان النبي ﷺ يحث باقي الصحابة على أخذ العلم من هؤلاء الصحابة المتخصصين ،

(١) صحيح البخاري حديث رقم (٢٧٣١) .

(٢) صحيح البخاري حديث رقم (١٠٧) .

(٣) صحيح البخاري حديث رقم (٢٨٢٤) ، وانظر : فتح الباري (٦/ ٣٦-٣٧) .

(٤) مسند أحمد برقم (٢٢٩٧١) .

حيث شهد الرسول ﷺ لمعاذ بن جبل بأنه متخصص بعلم الحلال والحرام ، وشهد لزيد بن ثابت بأنه متخصص بالفرائض - المواريث - ، وشهد لأبيٍّ بن كعب وعبد الله بن مسعود بالحفظ والإتقان في قراءة القرآن ، وشهد لعلي بن أبي طالب بأنه عالم بالقضاء ، ولعبد الله بن عباس بالتفسير . . . إلخ[1] .

وقد كان هؤلاء المتخصصون أنفسهم يستفيد بعضهم من بعض [2] .

١٦ - أن أحكام الشريعة الإسلامية لم تظهر دفعة واحدة في عهد النبي ﷺ ، بل ظهرت تدريجياً على مراحل استغرقت مدَّة ثلاث وعشرين سنة ، وارتبط كثير منها بحوادث تقع فيأتي التشريع لمعالجتها وبيان الحكم الشرعي لها ، مما أدَّى إلى سهولة حفظها ، ورسوخها في أذهان الصحابة الذين كانوا يعايشون هذه الأحداث ، ويترقبون بكل شغف واهتمام حكم الرسول ﷺ في كل حادثة وواقعة جديدة ، حتى إذا صدر الحكم من الرسول ﷺ أصبح هو موضوع حديث الصحابة في مساجدهم ، وبيوتهم ، ومنتدياتهم ، ومجالسهم ، وصار معلوماً للجميع ، ولا شك أن ارتباط المعلومة بواقعة معينة يزيد من رسوخها في الذهن[3] .

(١٧) أن الرسول ﷺ كان يبعث إلى الأقاليم أصحابه العلماء بشريعته كي يعلموا

---

(١) الترمذي برقم (٣٧٩٠) وابن ماجة برقم (١٥٥) . وانظر : صحيح البخاري ح رقم (٣٨٠٨) وفتح الباري (٧/ ١٢٦) و ح (٣٨١٠) والفتح (٧/ ٣٨١) .

(٢) مصنف عبد الرزاق (١١/ ٣٢٧-٣٢٨) وأخبار القضاة (١/ ١٠٥) وإعلام الموقعين (١/ ١٥) و(١/ ١٨) و (١/ ٢١) .

(٣) كما في سورة المجادلة رقم (٥٨) آية (١-٤) وسورة الممتحنة رقم (٦٠) آية (١٠-١٢) . وسورة الجمعة رقم (٦٢) آية (٩ - ١١) ، وانظر : تاريخ ابن خلدون (١/ ٤٣٨) في نزول القرآن بحسب الوقائع والأحداث .

الناس في تلك الأقاليم أمور دينهم ويقضوا بينهم عند التنازع والاختلاف ، ويقيموا الحدود والفرائض ، فقد أرسل أبا عبيدة بن الجراح إلى أهل نجران ، وأرسل معاذ بن جبل وعلي بن أبي طالب إلى اليمن[1] . . .إلخ وهؤلاء من العلماء الحفاظ للقرآن والسنة وممن لازموا الرسول ﷺ سنوات طويلة وهذا دليل على أنهم كانوا قد بلغوا درجة الاجتهاد التي تؤهلهم للقيام بهذه المهمة العظيمة .

١٨ - كما أن دولة الرسول ﷺ قد استمرخ بعد وفاته ، حيث حكم أصحابه من بعده ، فقد كان أبو بكر الصديق أول خليفة بعد الرسول ﷺ ، وهو أول من آمن به من الرجال ، وأعلم الصحابة بسنن الرسول ﷺ ، حيث كان أقربهم منه منزلةً ، وأشدهم ملازمة له مدَّة ثلاث وعشرين سنة بمكة والمدينة ، وقد كان يسير على سنة الرسول ﷺ ، وكان إذا نزلت قضية أو وقعت حادثة ولا يعلم فيها نصاً من القرآن أو سنةً عن الرسول ﷺ بادر إلى جمع كل الصحابة ، وسألهم هل يعلمون فيها سنة عن الرسول ﷺ ، فإذا أخبروه عمل بها ، وهكذا فعل الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ، وكذا فعل الخليفة الثالث عثمان ، والرابع علي[2] ، حتى استقرخ الشريعة ، والقوانين الإسلامية ، والقضاء ، والفقه الإسلامي ، بناءً على المصدرين الأساسيين (القرآن) و (السنة) مدّة أربعين سنة ، وهي فترة دولة الرسول ﷺ والخلفاء الأربعة .

---

(١) انظر : صحيح البخاري كتاب (٩٥) باب (١) في خبر الواحد وباب (٤) ، والإحكام ، ابن حزم (١/ ١٠٩-١١٢) ، ودراسات في الحديث النبوي ، د/ محمد مصطفى الأعظمي (١/ ٥٣) ، طبعة ثالثة سنة ١٩٨١م ، شركة الطباعة ، الرياض ، والسنة قبل التدوين لمحمد عجاج الخطيب (١/ ٧٠) ، طبعة خامسة سنة ١٩٨١م ، دار الفكر _لبنان .

(٢) الإحكام (٢/ ١٢٦) وإعلام الموقعين (١/ ٦٢) .

وفيها تم إرساء قواعد الدولة ، ووضعت النظم الإدارية ، والقضائية ، والاقتصادية [١] ، وصار من العسير تغيير هذه النظم بعد ذلك ، وفي هذه الفترة ولد ونشأ الجيل الثاني ، وهم أبناء الصحابة الذين تلقوا العلم عن الصحابة ، وشاهدوا كيف يحكم ويقضي عشرات القضاة [٢] ، وكيف يفتي عشرات الفقهاء[٣] ، في كثير من القضايا والحوادث التي تقع في مدن وأقاليم هذه الدولة المركزية ، التي شملت الجزيرة العربية ، وإيران ، والعراق ، والشام ، ومصر ، وليبيا - استناداً منهم على نصوص الشريعة (القرآن) و (السنة) وتحت إشراف ومراقبة الخلفاء [٤] الأربعة الذين كانوا على علم ودراية تامة بهذه الشريعة ، وكانوا حريصين على التزام القضاة والفقهاء بالسنُّة ، التي هي مصدر رئيسي للتشريع لا يمكن الاستغناء عنه .

وقد أرسل عمر بن الخطاب علماء الصحابة إلى الأمصار والأقاليم يعلِّمون الناس القرآن والسنة ، ويقضون بينهم [٥] ، كما أبقى عنده كبار علماء الصحابة كي يشاورهم وهم أهل الشورى [٦] ، فكان إذا قضى أحد من القضاة أو أفتى فتوى في بلد من البلدان ثم جاء إلى المدينة سأل أهل الشورى عن السنة ، فإذا خالفوه

---

(١) انظر : التراتيب الإدارية للكتاني (١٨٠-١٨١) طبعة سنة ١٣٤٦ هـ ، فاس - المغرب ، والرياض النضرة في مناقب العشرة للمحب الطبري (٢/ ٣) ، طبعة ثانية سنة ١٩٥٣م ، دار التأليف - مصر .

(٢) انظر : أخبار القضاة (١/ ٤) ، وكتاب القضاء في عهد عمر ، د/ الطريفي (٢/ ٧٦٣-١٠٠٤) ، طبعة أولى سنة ١٩٨٦م ، دار المدني-جدة .

(٣) الإحكام (٤/ ١٧٧) وأعلام الموقعين (١/ ١٢) .

(٤) انظر : القضاء في عهد عمر (١/ ١٦٨) في شأن مراقبة عمر للقضاة ، وأيضاً إعلام الموقعين (١/ ٨٤) .

(٥) مجموع فتاوي ابن تيمية (٢٠/ ٣١١) .

(٦) مجموع فتاوي ابن تيمية (٢٠/ ٣١٣) .